



القصة

فَنَ عَرَبِيٌّ قَدِيمٌ يُعَبِّرُ عَنِ الْخِيَالِ وَالْمَهَارَةِ الْفَنِيَّةِ

القِصَّةُ عَمَلٌ أَدَبِيٌّ يُصَوِّرُ حَادِثَةً مِنْ حَوَادِثِ الْحَيَاةِ أَوْ عِدَّةَ حَوَادِثٍ مُتْرَابَةً، يَتَعَمَّقُ الْقَاصُّ فِي تَفْصِيلِهَا وَالنَّظْرُ إِلَيْهَا مِنْ جَوَانِبٍ مُتَعَدِّدَةٍ لِيُكْسِبَهَا قِيَمَةً إِنْسَانِيَّةً، خَاصَّةً مَعَ الْإِرْتِبَاطِ بِزَمَانِهَا وَمَكَانِهَا وَتَسْلُسُلِ الْفِكْرَةِ فِيهَا، وَعَرَضٌ مَا يَتَخَلَّلُهَا مِنْ صِرَاعٍ مَادِّيٍّ أَوْ نَفْسِيٍّ، وَمَا يَكْتَنِفُهَا مِنْ مَصَاعِبٍ وَعَقَبَاتٍ، عَلَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِطَرِيقَةٍ شَائِقَةٍ تَنْتَهِي إِلَى غَايَةٍ مُعَيَّنَةٍ. وَيُعْرَفُهَا بَعْضُ النُّقَادِ بِأَنَّهَا: حِكَايَةٌ مُصْطَنَعَةٌ، مَكْتُوبَةٌ نَثْرًا، تَسْتَهْدَفُ اسْتِثَارَةَ الْاهْتِمَامِ، سَوَاءً أَكَانَ ذَلِكَ بِتَطَوُّرِ حَوَادِثِهَا، أَمْ بِتَصَوِيرِهَا الْعَادَاتِ وَالْأَخْلَاقِ، أَمْ بِغَرَابَةِ أَحْدَاثِهَا.

وَرَعِمَ أَنْ بَعْضَ النَّاسِ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْقِصَّةَ مِنَ الْفُنُونِ الْأَدَبِيَّةِ الطَّارِئَةِ عَلَى الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ، اسْتَمَدَّهَا مِنَ الْأَدَابِ الْعَرَبِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، فَإِنَّ الْحَقَائِقَ تَوَكَّدَ أَنَّ التُّرَاثَ الْأَدَبِيَّ الَّذِي خَلَفَهُ لَنَا أَسْلَافُنَا يَحْتَوِي عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْقِصَصِ الدِّينِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ وَالْفَلَسَفِيِّ وَالْوَعْظِيِّ

التُّرَاثُ الْأَدَبِيُّ الَّذِي خَلَفَهُ لَنَا أَسْلَافُنَا يَحْتَوِي عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْقِصَصِ الدِّينِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ وَالْأَدَبِيِّ

وَالْأَدَبِيِّ، وَمِنْهُ مَا وُضِعَ لِمُجَرَّدِ الْقِصِّ لَيْسَ إِلَّا، وَمِنْهُ الْوَاقِعِيُّ، وَمِنْهُ الرَّمْزِيُّ، وَمِنْهُ الْمُسْجُوعُ الْمُجَنَّنْسُ، وَمِنْهُ الْمُرْسَلُ، وَمِنْهُ الْمُحْتَفَى بِلُغَتِهِ، وَالْبَسِيطُ

مَا تَكُونُ الْأُمَّمُ ثِقَافَةً وَتَحَضُّرًا، بَلْ كَانَ هَذَا الْفَنُ مَعْرُوفًا قَبْلَ ذَلِكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

وَالْعَرَبُ كَجَمِيعِ الْأُمَّمِ، لَهُمْ قِصَصٌ وَأَحَادِيثٌ وَخُرَافَاتٌ وَأَسَاطِيرُ، يَقْضُونَ

بِهَا أَوْقَاتِ الْفِرَاقِ، وَيُصَوِّرُونَ بِهَا عَادَاتِهِمْ وَطِبَاعَهُمْ وَغَرَائِزَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَقْضُونَ، فَمَا كَتَبَهُ الْعَرَبُ وَمَا تَرَجَّمُوهُ مِنْ قِصَصٍ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ، يُنْبِئُ بِجَلَاءِ

عَمَّا يَتَمَتَّعُونَ بِهِ مِنْ خِيَالٍ وَمَهَارَةٍ فَنِيَّةٍ فِي هَذَا السَّبِيلِ، هَذَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَنْ بَعْضَ الدِّرَاسَاتِ قَدْ أَكَّدَتْ وَجُودَ صِلَةٍ بَيْنَ عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَدَابِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَّمِ، كَالْإِغْرِيْقِ وَالْفُرْسِ، تَمَثَّلَتْ فِي أَنَّهُمْ أَخَذُوا بَعْضَ الْقِصَصِ، فَاحْتَفَظُوا بِهِ، يَرُودُ فِيهِ وَيَتَسَامَرُونَ بِهِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي نَقَلُوهُ عَلَيْهَا دُونَ تَبْدِيلِ، أَوْ صَاغُوهُ فِي قَالِبٍ يَتَّفِقُ وَذَوْقِهِمْ، عِلَاقَةً عَلَى قِصَصِهِمْ الْأَصِيلِ الَّذِي لَمْ يَأْخُذُوهُ عَنْ غَيْرِهِمْ مِمَّا كَانَ يُطْلَقُ عَلَيْهِ: «أَحَادِيثُ الْهَوَى».

وَتَعَدُّ الْقِصَّةُ أَحَدَ أَشْكَالِ الْأَدَبِ الْفَنِيَّةِ، الَّتِي تَطَوَّرَتْ تَطَوُّرًا مَلْحُوظًا عَبْرَ تَارِيخِهَا الْمُمْتَدِّ، وَمَنْ يَرْجِعُ إِلَى كُتُبِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ فَسَوْفَ يَهْلُوهُ الْمَقْدَارُ الضَّخْمُ لِلْقِصَصِ الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا تِلْكَ الْكُتُبُ، وَكَثِيرٌ مِنْهُ يَعُودُ إِلَى الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ أَبْطَالًا وَمَوْضُوعَاتٍ وَتَوَارِيخٍ،

وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي يُوَافِقُ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّ الْعَرَبَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ لَهُمْ قِصَصٌ كَثِيرٌ وَمُتَعَدِّدٌ، فَقَدْ كَانُوا مَشْغُوفِينَ بِالتَّارِيخِ وَالْحِكَايَاتِ الَّتِي تَدُورُ حَوْلَ أَجْدَادِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ وَفُرْسَانِهِمْ وَشِعْرَانِهِمْ. وَكِتَابُ «الْأَغَانِي» لِأَبِي الْفَرَجِ الْأَصْفَهَانِيِّ يَكَادُ يَكُونُ ذَخِيرَةً كَامِلَةً

مِنْ الْقِصَصِ الَّذِي يَتَنَاقَلُهُ النَّاسُ عَنْ شِعْرَانِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ. وَلَيْسَ كِتَابُ «الْأَغَانِي» هُوَ الْمَرْجِعُ الْوَحِيدُ فِي هَذَا الْجَانِبِ، بَلْ إِنَّ الْمَكْتَبَةَ الْعَرَبِيَّةَ غَنِيَّةً بِأَمْثَالِ «الْأَمْثَالِ»، وَ«صُبْحِ الْأَعْشَى»، وَ«الْعَقْدِ الْفَرِيدِ»، وَ«الشُّعْرِ وَالشُّعْرَاءِ»، وَكُتُبِ التَّرَاجِمِ وَالطَّبَقَاتِ، بِمَا لَا يَدْعُ مَجَالًا لِلشَّكِّ فِي أَنَّ الْفَنَّ الْقِصَصِيَّ قَدْ تَنَاوَلَ الْحَيَاةَ الْجَاهِلِيَّةَ فِي كُلِّ مَظَاهِرِهَا.

وَلَقَدْ كَانَ عَرَبُ الْجَاهِلِيَّةِ مَشْغُوفِينَ بِالْقِصَصِ شَغْفًا شَدِيدًا، وَسَاعَدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْقَاتُ فَرَاحِهِمْ الْوَاسِعَةِ فِي الصَّحْرَاءِ، فَكَانُوا حِينَ يُرْخِي اللَّيْلُ سُدُولَهُ يَجْتَمِعُونَ لِلسَّمْرِ، وَمَا إِنْ يَبْدَأُ أَحَدُهُمْ فِي مَضْرَبٍ مِنْ مَضَارِبِ خِيَامِهِمْ بِقَوْلِهِ: «كَانَ وَكَانَ»، حَتَّى يُرْهِفَ الْجَمِيعُ أَسْمَاعَهُمْ إِلَيْهِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَدُونُونَ قِصَصَهُمْ، بَلْ يَتَنَاقَلُونَهُ مُشَافَهَةً، إِلَى أَنْ تَمَّ تَدْوِينُهُ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ.

العَرَبُ كَجَمِيعِ الْأُمَّمِ لَهُمْ قِصَصٌ وَأَحَادِيثٌ وَخُرَافَاتٌ وَأَسَاطِيرُ يَقْضُونَ بِهَا أَوْقَاتِ الْفِرَاقِ وَيُصَوِّرُونَ بِهَا عَادَاتِهِمْ وَطِبَاعَهُمْ